

الدرس التاسع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث السادس والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ "

رواه مسلم بهذا اللفظ.

الشرح..

هذا الحديث العظيم من جوامع كلم النبي صلى الله عليه وسلم في الحث على الخير وأبواب البر المتنوعة وأبواب الإحسان ، وأن الجزاء من جنس العمل {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} ، فالذي يحسن إلى عباد الله يحسن الله جل وعلا إليه ، والذي يرحمهم يرحمه الله جل وعلا " ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " ، والذي يعمل على بذل العون لهم يعينه الله " والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " ، والذي يسعى في مصالحهم وحاجاتهم وتنفيس كرباتهم ؛ فالجزاء في ذلك كله من جنس العمل ، وأيضاً في مقابل ذلك الإساءة إلى الناس وتتبع عورات الناس ونحو ذلك من الأعمال المحرمة أو الفعال المشينة ؛ فإن ذلك أيضاً يلقي عليه فاعله عقوبته جزاءً وفاقاً ، قال تعالى {ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء} .

ولهذا فإن هذا الحديث من الأحاديث العظيمة في باب الترغيب في الخير وبذل العون والمساعدة للناس وعطفهم ورحمتهم والإحسان إليهم إلى غير ذلك من أبواب البر المتنوعة ومجالاته المتعددة .

وقد ذكر الإمام النووي رحمه الله تعالى هذا الحديث عقب الحديث السابق " لا تحاسدوا " ، وبين الحديثين إشتراك من حيث أنما ذكر فيهما كله من مقتضيات الأخوة الإيمانية والرابطة الدينية ، فإن مقتضى هذه الأخوة أن لا يلحق الأخ من أخيه ضرر أو إيذاء " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ... الحديث " ومن مقتضى الأخوة الإيمانية أن يبذل الأخ لأخيه من إحسانه وعطفه ورحمته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وختم عليه الصلاة والسلام هذا الحديث ببيان فضل العلم والاجتماع على طلبه وتذاكره ومداينة مسائله ، وأن ذلك سبيل إلى الجنة وأنه يترتب على ذلك فضائل عديدة ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث .

ثم ختم الحديث بفضل العمل ومكانته في الشريعة ، فهو حديث من جوامع كلم الرسول صلى الله عليه وسلم في باب الخير والبر والإحسان .

وقد بدأه عليه الصلاة والسلام بقوله " من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا " : الكربة المراد به الضائقة والشدة التي تلحق الإنسان إما في ماله أو في صحته أو في غير ذلك من شؤونه ؛ فمن نفس عن أخيه كربةً سواءً كان هذا التنفيس بدلالة وتوجيه ، أو كان هذا التنفيس ببذل مال أو كان هذا التنفيس بدلالة إلى علاج ، أو غير ذلك .

قال " نفّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة " : ويوم القيامة يومٌ فيه أهوال وكُربٌ وشدائد يلقيها الناس ، وتشتد عليهم الأمور فيما يعاينونه ويستقبلونه من أهوال في ذلك اليوم ، فمن نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

وقوله "كرب يوم القيامة" : هذا فيه دلالة على أن يوم القيامة فيه كرب تواجهه الناس ، وأن ما يقدمونه في هذه الحياة من أعمال الخير والبر والإحسان يجازون عليها يوم القيامة بأن تُنْقَسَ عنهم كربات يوم القيامة - تنفيسٌ بتنفيس - .

"ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة" : بأن يكون عليه دين أو في ذمته مال للغير وأصابه إعسار لا يستطيع أن يسدد الدين

والتيسير عليه بحالتين :

- إما أن يُنظره إلى ميسرة : يقول له صاحب المال لا عليك ، متى ما تيسر عليك سدّد ؛ فهذا فيه تنفيس على المعسر ، نَقَسَ عليه بأن أحرّ قضاء الدين الذي حلّ قضاؤه .
- أو أن يعفو عنه . وهذا أعلى وأرفع . يعفو عنه ويسامحه ويجعله في حل من السداد .

قال "يسر الله عليه في الدنيا والآخرة" : فالتيسير على المعسر ينمّر تيسيراً في الدنيا وتيسيراً في الآخرة؛ فقد يواجه أموراً تتعسر عليه فييسرها الله له جزاءً لتيسيره على إخوانه ، وأيضاً ييسر الله عليه يوم القيامة فيما يلقيه الناس من أهوال وشدائد .

قال "ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة" : أي وَقَفَ على زلةٍ أو هفوةٍ أو عملٍ لا يسرُّ فاعله إنكشافه واطلاع الناس عليه ؛ فستره ولم يخبر بما رآه عليه أو بما وقف عليه من حاله ، فجزاء هذا الستر سترٌ كما قال عليه الصلاة والسلام "من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة" لأن هذا الذي وقف من غيره على عيب هو أيضاً عرضة يوم من الأيام للوقوع في الخطأ والعيب "كل بني آدم خطاء" وكما أنه يحب لنفسه إن وقف أحدٌ على عيبه أن يستره وأن لا يهتك ستره فليعامل الآخرين بما يحب أن يعامل به ، وكما أن حاله يحب أن يُستر فيما لو وقف أحدٌ على عيب من عيوبه فكذلك إذا وقف على عيب لأحد إخوانه فليستر عيبه ولا يهتك ستره ، وإذا ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة بحيث لا يهتك ستره بين الناس في الدنيا وأيضاً يوم القيامة لا يفضحه الله جل وعلا بعيوبه على رؤوس الأشهاد ، وفي الحديث يأتي الله جل وعلا بعبده المؤمن، ويضع عليه كفته، ويقره بذنوبه ثم يقول : "سترتها عليك في الدنيا

وأنا أغفرها لك اليوم " والمسلم يتطلع أن ينال الستر في الدنيا والآخرة ، ولهذا عليه أن يبذل الأسباب التي ينال بها ذلك ؛ ومن الأسباب أن يستر عيوب الآخرين ولا يهتك ستر غيره إلا إذا كان العيب الذي وقف عليه من شخص مُصر على المحرم أو يُخشى على الآخرين من أمره ؛ فإن هذا الأمر يُنظر إليه بحسب قاعدة الشريعة في جلب المصالح ودرء المفاسد .

مقابل ذلك من يحرص - والعياذ بالله - على تتبع عيوب الآخرين وهفواتهم وزلاتهم ، وإذا وقف على شيء من ذلك فرح به وسعى في نشره وإذاعته بين الناس ؛ فهذا عقوبته من جنس عمله كما صح في الحديث في مسند الإمام أحمد عن أبي برزة رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لاتغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته " حديث صحيح رواه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما .

فهذا بابٌ ينبغي أن يحرص عليه المسلم ؛ يحرص على ستر عيوب إخوانه ، ولا بد أن تقع عينه على هفوة أو زلة لإخوانه أو يقع سمعه على شيء من ذلك ؛ فليستر إخوانه كما يحب هو أن يُستر ، وكل بني آدم خطاء ، ولا يحرص على تتبع عورات الآخرين ، وإذا وصل الإنسان إلى مرحلة يفرح فيها بالعثور على عثرة إخوانه وزلة إخوانه فهذا نوع مرض في القلب وضعف في الأخوة الإيمانية ، وقد مر معنا قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " فكما أنه يحب أن يُستر وأن لا يُهتك ستره فليعامل غيره بما يحب أن يُعامل به .

ثم قال " والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " : وهذا من جوامع الكلم في باب البر والإحسان ومساعدة الآخرين .

" ما كان العبد في عون أخيه " في أي مجال سواءً استشارة أو مناصحة أو دلالة أو غير ذلك من وجوه العون ، العون لإخوانه بالمال أو بالتوجيه والدلالة إلى الخير أو بالدعاء لهم بالهداية والتوفيق كلما كان العبد أحرص على نفع عباد الله وإيصال الخير لهم كلما كان ذلك سبباً لمجازاته بمثل ذلك ، وكلما كان حريصاً على هداية الناس ومساعدتهم ومعاونتهم حقق الله جل وعلا له في حياته من أبواب الهداية والتوفيق والتيسير ما لا يحتسبه ولا يخطر له على بال ،

والأمر بيد الله سبحانه وتعالى " والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " وكفى بها منقبةً وفضيلة لعبد الله المؤمن أن يكون يفوز بعون الله له ، ومن كان الله في عونه كفاه الله كل شر ووقفه لكل خير {أليس الله بكاف عبده} .

ثم قال " ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة " :

" سلك طريقاً " أي سار في طريق طلب العلم سواءً بالذهاب إلى أهل العلم أو بالجلوس في حلق أهل العلم أو بحفظ العلوم الشرعية والتفقه فيها أو باقتناء الكتب النافعة المفيدة والإفادة منها أو غير ذلك من المسالك والأبواب التي يكون بها طلب العلم وتحصيله .

" سهّل الله به طريقاً إلى الجنة " وهذا فيه فضل العلم وفضل سلوك طلب العلم وأن طلب العلم سبيل إلى الجنة ، والجنة لا تُدخل بعد رحمة الله تبارك وتعالى إلا بالعمل الصالح ، والعمل الصالح لا يُعرف إلا بالعلم النافع ؛ ولهذا كان العلم قبل القول والعمل كما قال الله سبحانه وتعالى {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات} فبدأ بالعلم قبل القول والعمل ؛ لأن القول السديد والعمل الصالح لا يمكن أن يُعرف إلا بالعلم النافع ولهذا كان العلم مقدماً على القول والعمل ، ومن عمل بلا علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح كما قال ذلك عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، ولهذا يحتاج العبد الذي يريد لنفسه الجنة والفوز برضا الله تبارك وتعالى يحتاج إلى العلم ، وأول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم {اقرأ} وقال تعالى {وقل رب زدني علماً} .

فالعلم يأخذ بصاحبه إلى الأعمال الصالحة والطاعات الزاكية ، يعرف من خلاله الثواب والعقاب والترغيب والترهيب ، وعمل أهل الجنة وعمل أهل النار ، يعرف فيه فرائض الإسلام وواجبات الدين ومستحباته ورغائبه ، ويعرف من خلاله المحرمات والآثام والكبائر والمكروهات ، ولا يزال العلم يضيء له طريق الخير ودروب الصلاح ، ولا يزال بسلوك العلم يترقى في رتب الخير ومنازله ولهذا قال "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة "

وتسهيل طريق الجنة لطالب العلم واضح في العلم من جهات كثيرة ؛ لأن العلم به تُعرف الفضائل ، وبه تُعرف الزواجر والعقوبات ، وبه تُعرف الأعمال الصالحات ، وبه يميز الإنسان بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والسنة والبدعة ، وبه يعرف المنكرات والمحرمات ، وبه يعرف العقوبات ؛ كل هذه الأمور إنما تُعرف بالعلم ؛ ولهذا إذا شاع الجهل في مجتمع من المجتمعات ؛ عمّت فيه المنكرات وكثرت الشرور وقلت فيه الطاعات ، وكثرت البدع وفشا السحر والضلال وأنواع الظلمات ، وإذا سطع نور العلم في البلد انحسرت هذه الأباطيل وعمّ فيه الخير ؛ وبهذا يُعرف أيضاً مكانة أهل العلم وعظم أثرهم على البلدان التي يكونون فيها ؛ وقد قيل قديماً لولا تسخير الله للعلماء لكان الناس مثل البهائم أي لا يعرفون شيئاً ، لا من الفرائض ولا من الواجبات ولا من الثواب ولا من العقوبات ..

لكن إذا سخر الله سبحانه وتعالى لأهل البلد عالماً ينير لهم الطريق ويدهمهم إلى الحق ويحذرهم من الضلال والباطل فإن الخير يشيع في البلد ، والباطل ينحسر كما قال الله سبحانه {وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً} ولهذا كان متأكداً على أهل القرى والمدن التي يفسو فيها الجهل ويكثر الضلال والبدع أن ينتدب بعض الأخيار في التفرغ لطلب العلم والتزود من معينه {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم} .

فالعلم نور وضياء لصاحبه ، والعالم في مجتمعه نورٌ لنفسه ونورٌ لغيره ، ومثل العالم مثل رجل مع قوم في أرض مظلمة معتمة بالظلام وفيها الحفر وفيها الهوام والحشرات وفيها الأشواك ، ثم أمسك مصباحاً ومشى أمامهم قائلاً من هنا الطريق ، فإذا مشوا معه في هذا النور . نور العلم . فإنهم يأمنون بإذن الله من العثرة ومن الزلة ويكونون على هدى مستقيم وطريق قويم ؛ فالعلم نورٌ وضياء وهو سبيل إلى الجنة .

قال " وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده " : هذه أربعة فضائل عظيمة للغاية يظفر بها من أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالجلوس في بيت من بيوت الله ليتفقه في دينه وفي كتاب الله جلال وعلا ؛ قال

" وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم " فيجتمعون بين القراءة والفهم والتدبر لكلام الله سبحانه وتعالى قال الله تعالى { كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ } وقال تعالى { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ } وقال تعالى { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ } فإذا اجتمعوا على تلاوة القرآن ومدارسة القرآن ومذاكرة معانيه ومضامينه ودلالاته متدبرين متفقهين بنية العمل بالقرآن فإنهم بذلك يكونون تالين لكتاب الله حق التلاوة لأن ذلك إنما يكون بالقراءة والتدبر والعمل ، فإذا كان هذا شأنهم مجتمعين في بيت من بيوت الله على قراءة القرآن ومدارسته والتفقه فازوا بهذه الثمار العظيمة والآثار المباركة التي ذكرها النبي ﷺ في هذا الحديث .

الأولى : " نزلت عليهم السكينة " والسكينة أمرٌ وأنسٌ وراحةٌ في القلب ، ينزله الله جل وعلا مناً وتفضلاً منه على من حصل منهم هذا الاجتماع ، ينزلها الله سبحانه وتعالى على قلوب المجتمعين في بيوت الله على مدارسة القرآن والتفقه في معانيه ودلالاته .

يحصل بذلك لقلوبهم طمأنينة وسكوناً وراحةً كما قال الله تبارك وتعالى { أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } فيطمئن القلب ويزول عنه اضطرابه وقلقه ويزول عن القلب تشوشه ، ويصبح القلب ساكناً ومطمئناً .

الثاني : قال " وغشيتهم الرحمة " أي رحمة الله سبحانه وتعالى ، ومعنى غشيتهم أي عمتهم وشملتهم ، فيفوزون بهذا الفضل العظيم بأن تغشاهم رحمة الله سبحانه وتعالى . والمؤمن عندما يدخل المسجد ويسمي عند الدخول يسأل الله عز وجل أن يفتح له أبواب الرحمة ، وهذا يقوله عند باب المسجد عندما يدخل ، وهذا فيه أن في المسجد أبواب الرحمة ، وأن في المسجد مجالات عظيمة يفوز فيها العبد برحمة الله جل وعلا وأعظم ذلك الصلاة المكتوبة ، ومن ذلكم الجلوس في المساجد تفقهاً في الدين ومدارسة للقرآن الكريم ومذاكرة لسنة النبي ﷺ

• الله وسلامه عليه

الثالث : " وحفتهم الملائكة " أي تحفهم بأجنحتها وتحف المكان الذي هم مجتمعون فيه ، وهذا نستفيد منه فائدة أن أثر الإيمان بالملائكة وهو إيمان بأمر غيبي على سلوك العبد وعمله ، والمؤمن يزيده هذا الإيمان حرصاً على الخير ورغبة فيه ، وطالب العلم إذا استشعر أن المجلس

محفوظ بالملائكة الكرام الطيبين الطاهرين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يُسرُّ بذلك ويسعد بهذا الأثر المبارك ، وقد جاء في الحديث الآخر " إن لله ملائكة فضلاء يجوبون فإذا وجدوا مجلس ذكر قالوا هلم حاجتنا ثم حفوه وأحاطوا به "

وهذا أمرٌ وإن كان من يجلس في حلقة العلم لا يراه إلا أن المؤمن منه على يقين بخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه ومثله قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر " وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع " .

وقد ذكر بعض أهل العلم عقوبات معجلة لمن يسخر من مثل ذلك - عياداً بالله - أو يتهمكم بمثل هذه الأحاديث - لكونه لا يرى - ، مخرجاً بذلك نفسه عن أخص صفات أهل الإيمان وهو الإيمان بالغيب { هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب } ومن ذلكم ما ذكره بعض أهل العلم أن رجلاً من هؤلاء الساخرين المستهزئين صنع لنفسه حذاءً في أسفله مسامير وأخذ يمشي ، وكان منظره غريباً ؛ وأخذ يمشي بجوار بعض طلاب العلم ؛ فسأله بعض الناس قالوا ما تصنع يا فلان ؟ فقال ساخراً مستهزئاً : أظأ أجنحة الملائكة ؛ فتسمرت من حينه قدماءه . وهذه عقوبة معجلة ، ومن سلم منها لم يسلم من العقوبة المؤجلة يوم القيامة للساخرين المستهزئين المتهمكين بكلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

وعلى كلٍ فهذه فضيلة عظيمة ومنة كبيرة ينعم بها طالب العلم في مجلس العلم أن ملائكة الرحمة تحف المكان الذي هم فيه .

الرابع : " وذكرهم الله فيمن عنده " وهذه فضيلة عظيمة ومنة كبرى يفوزون بها .

" ذكرهم الله " كفى فضلاً وشرفاً ونعمة لطالب العلم أن يفوز بهذا الفضل العظيم ، وأن رب العالمين جل وعلا الغني الحميد يذكره عنده في الملأ الأعلى ، عند الملائكة الكرام الأطهار البررة ، ونضير هذا ما جاء في صحيح مسلم عن معاوية رضي الله عنه قال " بين نحن جلوس في المسجد حلقة نتذاكر إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال " ما أجلسكم ؟ قلنا جلسنا نذكر الله وما من الله علينا به أو نذكر الإسلام وما من الله علينا به فقال عليه الصلاة والسلام ما أجلسكم إلا ذلك ؟ - يستحلفهم بالله - قلنا

والله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال عليه الصلاة والسلام أما والله إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكن أتاني جبريل آنفاً فأخبرني أن الله يباهي بكم ملائكته " .

فهذا فضلٌ عظيم جداً وكفى به فضلاً ونبلاً وشرفاً لمن يكرمه الله سبحانه وتعالى ويمن عليه بالجلوس في بيوت الله لمداينة القرآن والفقه في دين الله ومذاكرة أمور الإسلام .

" وذكرهم الله فيمن عنده " : أي ذكره الله جل وعلا في الملائكة وأثنى على عبده في الملائكة والملا الأعلى .

" ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه " : وهذه الخاتمة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام عقب ذكره للعلم وفضله والجلوس في حلقه ومجالسه ؛ ذكره عليه الصلاة والسلام لهذا الفضل فيه التنبيه على مقصود العلم والغاية من مجالسه ، كما قال علي رضي الله عنه " يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل " ، فالعلم مقصوده العمل ، وإذا كان من يطلب العلم يطلبه ولا همة له في العمل ولا عزيمة عنده عليه ولا رغبة له فيه ؛ فعلمه وبأل عليه ، وحجة عليه ، وقد مر معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام " القرآن حجة لك أو عليك " وقوله عليه الصلاة والسلام " إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع آخرين " والحديثان في صحيح مسلم.

فالعمل مقصود العلم والمسلم يتعلم ليعمل ، والله جل وعلا بعث نبيه عليه الصلاة والسلام بالأمرين - بالعلم والعمل - كما قال تعالى { هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق } الهدى هو العلم النافع ودين الحق هو العمل الصالح وبهما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم وكلاهما مطلوب ، وإذا جمع العبد بينهما كان من المنعم عليهم ، وإذا أخل بالعلم كان من الضالين ، وإذا أخل بالعمل كان من المغضوب عليهم ؛ قال الله تعالى { اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين } .

فالمنعم عليهم من جمعوا بين العلم والعمل ، والضال من عمل بلا علم ، والمغضوب عليه من عنده علم لا يعمل به ؛ ولهذا ختم النبي عليه الصلاة والسلام الحديث ببيان فضل العمل ومكانته

قال " ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه " : يعني لو كان نسيباً وشريف النسب إذا بطأ به عمله ؛ فنسبه لا يسرع به ليفوز بالثواب وينجو من العقاب ؛ قال الله تعالى { فإذا نفخ في الصور فلا

أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[الأول : قوله " مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ " :
الكُرْبَةُ هي الشدَّة والضيق، وتنفيسها إزالتها، والجزاء على تنفيس كربة في الدنيا أن ينقَّس عنه
كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، والجزاء من جنس العمل، ولا شكَّ أنَّ الجزاء فيه أعظم؛ لشدَّة
كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وعظم الفائدة للمكروب في تنفيسها] .

الشرح..

قوله صلوات الله وسلامه عليه في الجملة من الحديث " من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة " : أي أن التنفيس بتنفيس ، الجزاء من جنس العمل ، والجزاء - الذي هو التنفيس يوم القيامة - أعظم لأنه كرب يوم القيامة أمرها مهين وشأنها عسير ، وإذا حصل له التنفيس في ذلك اليوم العظيم فلا شك أن الأمر أكبر وأجل من التنفيس الذي يكون للإنسان في الحياة الدنيا .

[الثاني : قوله " وَمَنْ يَسِّرْ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ " ، وهذا أيضاً الجزاء فيه من جنس العمل، والعمل هو التيسير على المعسر، وذلك بإعانتته على إزالة عُسرته، فإن كان مدينياً ساعده بإعطائه ما يقضي به دينه، وإن كان الدَّين له أنظره إن لم يُبرئه منه ، والإبراء خيرٌ من الإنظار لقول الله عزَّ وجلَّ: { وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ، وقد بيَّن صلوات الله عليه وسلم أنَّ الجزاء على التيسير تيسيرٌ يحصل في الدنيا والآخرة] .

الشرح..

المعسر من عليه دين وفي ذمته للناس حقوق ولكنه عاجز وغير قادر على الوفاء والسداد فصار معسراً

والتييسير عليه إما أن يكون من صاحب الدين نفسه ؛ وهذا له حالتان : إما أن يصبر ويقول له متى تيسرت لك الأمور تسدد ، أو يعفيه من الدين كله أو جزء منه .

أو يكون التيسير من شخص آخر بإعائه على قضاء الدين أو بسداده عنه .

فهذا كله من التيسير والثواب عند الله تبارك وتعالى والجزاء من جنس العمل .

[الثالث : قوله: "وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" ، وهذا أيضاً العمل فيه ستر في الدنيا، والجزاء عليه سترٌ في الدنيا والآخرة، والسترُ هو إخفاء العيب وعدم إظهاره، فَمَنْ كان معروفاً بالاستقامة وحصل منه الوقوع في المعصية نوصِّحْ وستر عليه، وَمَنْ كان معروفاً بالفساد والإجرام، فَإِنَّ السَّتْرَ عليه قد يَهْوَنُ عليه إجرامه، فيستمر عليه ويتمادى فيه، فالمصلحةُ في مثل هذا عدم الستر عليه؛ ليحصل له العقوبة التي تزجره عن العَوْدِ إلى إجرامه وعدوانه] .

الشرح..

ستر العيب الذي قد يقع من الإنسان أمرٌ يطلبه كل إنسان لنفسه ويحب لنفسه ذلك ؛ ولهذا من الدعاء المأثور الذي يستحب للمسلم أن يواظب عليه في صباحه ومساءه : " اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي.. " فهذا أمرٌ يطلبه المسلم لنفسه .

والعورات هي ما يسوؤه انكشافه من أمره وحاله ولا يسره ذلك ، والإنسان عرضة لفعل أمور وأعمال لا يسره أن يُطلع عليها ، فإن وقعت عليها عين أو سمعت بها أذن لا يجب ممن وقعت عينه على عيبه أو سمع به أن يذيعه ؛ فإذا عامل الآخرين بما يجب أن يعامل به فستر ما يقع عليه ويقف عليه من عيوبهم ستره الله جل وعلا في الدنيا والآخرة ، والجزاء من جنس العمل .

وكما بيَّن أهل العلم يستثنى من ذلك إذا كان العيب الذي وقف عليه إفساد بالناس وإضرار بهم وجناية على الآخرين ؛ فهذا السكوت عنه يترتب عليه تمادي الشخص في باطله

واستمراره في جنائياته وتعدياته ؛ فمثل هذا وبناءً على قاعدة الشريعة درء المفسد ورفع الضرر عن الآخرين والعدوان عليهم؛ الواجب هنا بيان ذلك لمن بيده الأمر حتى يُوقف ويمنع

[رابعاً : قوله : " والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " ، هذا فيه الحثُّ على إعانة المسلم أخاه المسلم، وأنه كلما حصل منه العون لإخوانه فإنه يحصل بذلك عون الله وتسديده، وهي كلمة جامعة من جوامع كلم الرسول صلى الله عليه وسلم .

الشرح..

قوله صلوات الله وسلامه عليه " والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " : هذه الكلمة من جوامع الكلم ، عمّت جميع أبواب النفع للناس وإيصال الخير لهم ؛ فمادام العبد ساعياً في عون الآخرين ومصلحهم وحاجتهم فالله جل وعلا في عونه ، ومن كان الله في عونه كفاه الله ويسّر له أموره وأعانه في مصالحه وأعماله وحاجاته .

ولهذا يذكر كثيرٌ من الناس أن يحصل منه معاونة لأحد إخوانه ثم يجد نفسه يوماً من الأيام في مثل الموقف الذي كان فيه أخوه فيجد من يعينه - ربما إعانة أحسن من إعانتة لأخيه - ؛ فالله جل وعلا ييسر له أموره من حيث لا يحتسب ؛ فطالما أن العبد يعمل على عون أخيه وإيصال الخير لإخوانه فالله في عونه.

وهذا الباب - باب الجزاء من جنس العمل في الإحسان والإساءة - بابٌ واسع دلت عليه دلائل كثيرة في القرآن والسنة ، وللشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في مجموع خطبه ؛ خطبه بليغة وجامع في هذا الباب ، وساق فيها جملة طيبة من الأمور التي هي مندرجة تحت هذا الباب مما دُكر في هذا الحديث ودُكر في أحاديث ونصوص أخرى وردت في هذا الباب ، وهي في مجموع خطبه رحمه الله مجموعة في مجلد واحد، وهي خطب قصيرة لكنها جامعة ونافعة للغاية ، منها خطبة بعنوان: الجزاء من جنس العمل .

[خامساً : قوله: " وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ " ، فيه الحثُّ على طلب العلم الشرعيّ وسلوك الطرق الموصلة إلى تحصيله، سواء كان ذلك بالسفر لطلبه؛ أو بالأخذ بأسباب تحصيله، من اقتناء الكتب المفيدة وقراءتها والاستفادة منها، وملازمة العلماء والأخذ عنهم وغير ذلك، والجزاء على ذلك من الله تسهيل الطريق التي يصل بها طالب العلم إلى الجنة، وذلك يكون بإعانتته على تحصيل ما قصد، فيكون بذلك محصلاً للعلم، ويكون أيضاً بإعانتته على العمل بما علمه من أحكام الشريعة، وذلك يفضي به إلى دخول الجنة.

الشرح..

هذا فيه أن من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، والتيسير هنا تناول تيسير الطلب وتيسير العمل ، والله عز وجل ييسر لعبده هذا وهذا (ولقد يسرنا القرآن للذكر) فييسر له القراءة وييسر له الحفظ وييسر له الفهم وييسر له العمل ، وكلما أقبل على هذا الباب بلغه الله سبحانه وتعالى ما قصد من العلم وما يترتب على العلم من عمل ، وما يترتب على ذلك من ثواب في الدنيا والآخرة.

[سادساً : قوله: " وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"

بيوتُ الله هي المساجد، وإضافتها إلى الله إضافة تشريف، والمساجد هي أحبُّ البلاد إلى الله؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " أحبُّ البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها " رواه مسلم .

وفيه الحثُّ على الاجتماع في المساجد لتلاوة القرآن وتدارسه، ويكون ذلك بقراءة أحد المجتمعين والباقون يسمعون، وبقراءتهم بالتناوب ليقوم بعضهم بعضاً في القراءة، ويستفيد كلُّ واحد منهم من غيره ما يحصِّل به إجادة القراءة وتدارك الخطأ إن وُجد، وإذا كان فيهم عالم بتفسيره علَّمهم، وإن كانوا من أهل العلم فيه تدارسوا معانيه، ورجعوا في ذلك إلى كتب التفسير في الرواية والدراية المبنية على ما كان عليه سلف هذه الأمة، والجزاء على الاجتماع في المساجد لتلاوة القرآن وتدارسه أربعة أمور، هي: نزول السكينة عليهم والطمأنينة، وأنَّ

الرحمة تغشاهم، أي تشملهم وتغطيهم، وأن الملائكة تحفهم أي: تحيط بهم، وأن الله تعالى يذكرهم عند الملائكة]

الشرح..

هذه الجملة " وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله " هذا فيه بيان فضل الاجتماع في بيوت الله على مدارس القرآن وقراءته ومذاكرة معانيه على الوصف الذي مرر معنا وأن هذا يثمر ثمرات عظيمة ذكرها النبي عليه السلام في قوله "إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده " .

وفي إضافة البيوت - التي هي المساجد - إلى الله تشریف للمساجد وبيان فضلها ومكانتها عند الله جل وعلا ، فالإضافة هنا تقتضي التشریف ، وقد صح في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المساجد أحب البقاع إلى الله سبحانه وتعالى .

[سابعاً : قوله: " وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ " المعنى: مَنْ أَخَّرَهُ عَمَلُهُ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ إِلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ ؛ لِأَنَّ الْمُعْتَبَرَ فِي ذَلِكَ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : " معناه أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ الَّذِي يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا } فَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ أَنْ يَبْلُغَ بِهِ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ فَيَبْلُغُهُ تِلْكَ الدَّرَجَاتُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ رَتَّبَ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ لَا عَلَى الْأَنْسَابِ كَمَا قَالَ تَعَالَى { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ } إِلَى أَنْ قَالَ: وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ بَعْضُهُمْ:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب [.

الشرح..

ختم النبي ﷺ هذا الحديث المبارك بقوله "من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه" ؛ فيه بيان لمكانة العمل ، وأن العمل مقصود العلم ، وأيضاً فيه بيان أن ثواب الآخرة ودخول الجنة إنما يكون بالعمل والإيمان والتقوى والطاعة ، وقد مر معنا قوله تعالى { ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون } وفي الحديث " لن يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة " والأحاديث في هذا كثيرة .

فقوله "من بطأ به عمله" : أي أخره عمله بسبب أنه لا يعمل ، فلو كان ذا نسب لم يسرع به نسبه ؛ أي نسبه لا يرفعه إذا كان عمله قد بطأ به وأخره ، وهذا فيه تنبيه وهو أن الإنسان عليه أن لا يغتر لا بنسب ولا بجاه ولا بمكانة ولا بغير ذلك من الأمور ؛ لأن الذي يبطئ به عمله أي يؤخره عن الجنة والفوز بثواب الآخرة النسب لا يسرع به والأمور الأخرى أيضاً لا تسرع به . كالجاه والمكانة والرئاسة والسلطان . فكل هذه لا تسرع به .

وهذا المعنى واضح في الآية الكريمة { فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون } ولهذا أورد ابن رجب رحمه الله في هذا المقام بيتين فيهما تعبير بليغ عن هذا المعنى وهي قول بعضهم :

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه : يعني لا بشيء آخر لا بنسبه ولا بجاهه ولا برئاسته ولا بمكانته فلا تترك التقوى اتكالا على النسب : إذا كان لك نسب شريف وفاضل فلا تتكل عليه وتترك التقوى ، والله سبحانه وتعالى يقول { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم } وفي حجة الوداع قال عليه الصلاة والسلام "كلكم من آدم وآدم من تراب ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمري ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى" .

ولهذا يقول في البيت الثاني :

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب .

سلمان رضي الله عنه رجل من فارس رفعه الله المكانة العلية بالإسلام ، وأبو لهب معروف نسبه وقربته للنبي ﷺ لكن الشرك وضعه (تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب)

[ثامناً : ممّا يُستفاد من الحديث :

أولاً : الترغيب في تنفيس الكرب في الدنيا، وأنّ الله تعالى ينقّس بها كرب يوم القيامة.

ثانياً : أنّ الجزاء من جنس العمل، فالعمل تنفيس كربة، والجزاء تنفيس كربة.

ثالثاً: الترغيب في التيسير على المعسرّين، وأنّ الجزاء عليه تيسير في الدنيا والآخرة.

رابعاً : الترغيب في ستر العيوب حين تكون المصلحة في سترها، وأنّ الجزاء عليها ستر في الدنيا والآخرة.

خامساً: الحثُّ على إعانة المسلم أخاه المسلم، وأنّه كلّما حصل منه العون لإخوانه فإنّه يحصل بذلك عون الله وتسديده.

سادساً: بيان فضل طلب العلم الشرعي.

سابعاً: فضل الاجتماع في المساجد لتلاوة القرآن وتدارسه.

ثامناً : أنّ الإيمان والعمل الصالح سبب دخول الجنّة وبلوغ الدرجات العالية عند الله عزّ وجلّ.

تاسعاً : أنّ شرف النّسب بدون عمل صالح لا يفيد صاحبه عند الله.

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

* * *